ابن منظور

صاحب لسان العرب

بالرغم من التمزق السياسي الذى أصاب العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) على يد التتار، فقد شهدت هذه الفترة ازدهاراً كبيراً فى كثير من فنون الأدب واللغة والشعر، وأصبح مركز هذه النهضة الأدبية الكبيرة فى مصر، كما شهدت هذه الفترة ازدهاراً فى فن الموسوعات العلمية التى حفظت لنا التراث العربي من الضياع.. من ذلك مثلاً" معجم الأدباء- ومعجم البلدان (وكلاهما لياقوت الحموي) والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة (لا بن تغري بردي).

وكان فى مقدمة تلك الأعمال الكبيرة: موسوعة اللغة العربية المعروفة باسم: معجم لسان العرب لابن منظور.

وابن منظور هو محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي.

ولد فى مصر (وقيل فى طرابلس المغرب) فى عام ٦٣٠م.. وخدم فى ديوان الإنشاء فى القاهرة.. ثم ولي القضاء فى طرابلس.. وأصيب بفقد البصر.. فلم يثنه ذلك عن العمل.. احتضنته مصر.. كما احتضنت غيره من العلماء الذين وجدوا فيها يسراً فى سبل العيش.. كما وجدوا فيها الأزهر الشريف ومساجدها ومدارسها المتعددة.. فكانت القاهرة مأوى للعلم والعلماء.

كانت حياة ابن منظور حياة عمل وجد موصول.. يدل على هذا أنه ترك تراثاً كبيراً من التأليف والاختصار.. بلغ نحو

خمسمائة مجلد عدا ما نسخه بخطه الجميل من كتب القدماء.

وبرغم من إصابته فى عينيه لم يكف يوماً عن البحث والتأليف.. بل شارك بفكره فى علوم كثيرة..

ولعل معرفته قد أهلته لتولى منصب القضاء..

أما فى اللغة فقد أبدع: لسان العرب..

واختصر كتباً كثيرة.. بعد أن حررها من الابتذال والأخبار الخرافية منها: مختار الأغاني، الذى اختصر فيه كتاب الأغاني للأصفهاني.. ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي فى عشرة مجلدات.. ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر..

ومختصر مفردات ابن البيطار، ومختصر العقد الفريد لابن عبد ربه.. ومختصر زهر الآداب للحصري.. ومختصر الحيوان للجاحظ.. ومختصر يتيمة الدهر للثعالبي.. وغيرها كثير.

وعلى مدى واحد وسبعين عاماً لم يتوقف هذا الرجل، ولم يترك قلمه، ولم يكف عن البحث بالرغم من إصابته بالعمى.. أما عمله الكبير (لسان العرب) فهو يمثل معجزة من معجزات التأليف الموسوعي فى التراث العربي.

ويذكر ابن منظور فى صدر مقدمته لهذا المعجم أنه اعتمد على كثير من أمهات المعاجم التى سبقته وأهمها: المحكم لابن سيده، والتهذيب للأزهري، والجمهرة لابن دريد، والمجمل لابن فارس، والنهاية لابن الأثير..

وفى مقدمة المعجم ينبهنا ابن منظور إلى أمر مهم جداً من الناحية الإحصائية التى لو بحثناها اليوم بالوسائل الحديثة لخرجت قريبة من آرائه فى دقتها.

فمن النتائج التى توصل إليها ابن منظور – ولم تكن لديه آلة حاسبة أو جهاز إلكتروني – علاقة نظم الحروف الهجائية داخل الأصل أو جذر الكلمة العربية.

فهناك حروف يكثر تكرارها فى اللغة العربية مثل: أ، ل، م، ه، ن، و، ى..

وحروف أخرى أقل فى تكرارها مثل: د، ع، ق، ب، ت، س، ج، ح..

وحروف يقل تكرارها عما سبق مثل: ظ، غ، ث، ز، خ، ص، ذ..

وهكذا أخذ يصنف الحروف بحسب تكرارها.. وتجاورها.

ومنذ ربع قرن قامت لجنة من علماء مصر اللغويين بإشراف الدكتور إبراهيم أنيس – عميد دار العلوم الأسبق وعضو مجمع اللغة العربية – بتحليل معجم الصحاح للجوهري. وهو أقل من لسان العرب وإن كان على نمطه.. واستخدموا الكومبيوتر فى هذا التحليل.. فتوصلوا إلى نتائج إحصائية قريبة جدا مما توصل إليه ابن منظور – الذى لم يكن يملك أجهزة علمية.

ولا شك أن شهادة علمية عصرية كهذه.. تضع الرجل فى مكانة خاصة من علماء عصره والعصور التالية عليه.

فإذا كنا أمام رجل عمل بالقضاء.. وكف بصره.. وامتلك ناصية اللغة.. فقدم لنا عملاً معجزاً كلسان العرب.. فلا نملك أمام هذه الموهبة إلا التقدير والاحترام.. فقد وهب العرب معجماً ليس فقط يعنى بمفردات اللغة وإنما قدم فيه الشواهد من الكتب المقدسة والشعر.. وساق لنا المعانى واشتق منها ما يصلح لأي زمان قادم.

إنه التحدي لكل قدرة إنسانية صحيحة قام بها رجل أحب العلم فأحب الحياة.. متسلحاً بالصبر والإدارة.

obeikandl.com